الطبيعة والقداسة في القصيدة الرعوية

م. م. علي حسن حميدي العتابي
الجامعة: واسط / كلية التربية
أ. د. جاسم حسين الخالدي.

Nature and Sanctity in Pastoral Poetry

Ali Hassan Hamidi Al-Atab
University of Wasit / College of Education
Prof. Dr. Jassim Hussein Al-Khalidi

ملخص البحث

قُدستْ الطبيعة منذُ العصور القديمة على يدِ الشعراء؛ لمكانتها الروحيّة في المعتقدات القديمة عبر محاكاتها، وكذلك النظرة الرومانسية التي جعلتها قرين النفس؛ لأنها المرآة الصافية التي يلجأ إليها الشعراء، لكي تعكس لهم حقيقة أنفسهم؛ لما فيها من حب، وعذوبة، وقدسية، أو أحزانٍ وآلام، ومعاناة...إلخ.

الكلمات المفتاحية: الطبيعة والقداسة، الرعوية، الروحية، الحس الرومنطيقي، التيه العاطفي.

Abstract

Nature has been sanctified by poets since ancient times, due to its spiritual status in ancient beliefs through its imitation, as well as the romantic view that made it a companion to the soul. It is the clear mirror to which poets turn to reflect their true selves, reflecting their love, sweetness, and sanctity, as well as their sorrows, pains, and suffering.

المقدمة:

كانت الطبيعة هادئة تغذي الحسَّ الرومنطيقي النابع من التيه العاطفي، فغمرهم بحس القداسة، والحنان، مما جعل الشاعر يخلع عليها ما قد يَشعر به في ذاته، معبرًا عمّا في داخله من أحاسيس، ومشاعر تنسجم مع تلك الطبيعة (امية حمدان، ١٩٨١:٧٥)، وقدسيتها؛ فكان للشعراء العراقيين أثر مهم في رسم تلك القدسية النابعة من أرضه الطيبة بأنهارها، وأهوارها، وبساتينها، وحقولها وجبالها...إلخ؛ "فقد لجأ إليها الشعراء، وعدّوها كائنًا حيًّا يمتلك الحياة والروح يمكن مخاطبته، ومناجاته، ومبادلته الأفكار، والعواطف، ولهذا كَثُرَتْ في نصوصهم الشعرية ألفاظ الطبيعة" (حيدر هادي سلمان، ٢٠١٩: ٣٧٥)، ومن هؤلاء الشعراء:

الشاعر(زاهر الجيزاني ١٩٤٨م) المولود في بغداد، وهو من رواد الجيل السبعيني في الشعر العراقي الذي يصفه قائلًا: إن «محور القصائد، محور منفعل تتركب المفردات، وتنسج الصورة، وتتسع القصيدة نموًا، وتتكاثر. في أجواء الانفعال اللغوي، في مُناخٍ متوتر، وانبثاقات حلمية، وأفكار ذهنية أو حسية» (زاهر الجيزاني وسلام كاظم، ١٩٨٦: ٧)، عبرت عن قداسة الطبيعة عند الإنسان، «إن إضفاء الروح على ظواهر الطبيعة؛ أي تعميم نزعة استحياء الطبيعة، هو نقل مباشر للجوهر البشري إلى الطبيعة، ذلك الجوهر الذي يتصف بالوعي، والإرادة» (غيورغي غاتشف، ١٩٩٠: ٣٠-٣١)، التي ألفت قدسية الطبيعة في شعر الجيزاني في قصيدته الرعويّة (استهلال في تمجيد البحر)؛ فيقول:

"يا هذيان الحداة حين تهدِّمُ أجناسَ الطيرِ
تبدأ حفلتها بسنونُوَةٍ، تبدأ حفلتها بسلالةِ خفاشٍ
وأُبارك عائلة مرجانيهْ تنهب بالبرق الخالص تسفح أفدنةَ اللهبِ
وتقول تبارك هذا البحرُ
هذا البحرُ جلالٌ من أدغالٍ غبراء
جلال يتجمع في أيدي البحر يبلل أشجار دمي"

(زاهر الجيزاني، ١٩٧٨: ١٩-٢٣).

عبر الجيزاني في قصيدته

الرعويّة عن مدى قدسية الطبيعة التي امتزجت مع الروح البشريّة بدءًا من عنوان القصيدة (استهلال في تمجيد البحر) الذي يمجد فيها البحر؛ فكانت الطبيعة مقدسة منذ القدم في تاريخ الحضارات، ونحن نقول: إنّ الشاعر ملهم يستنبط القول من داخل أعماق النفس مرتبط مع الطبيعة من طريق تلك القدسية التي يمارسها الإنسان من الطقوس والشعائر الفردية، والجمعية التي تسلط الضوء على قوى الطبيعة التي تشير للمقدس (ينظر: ناجح المعموري، ٢٠١٩: ٢٢٩-٢٣٣)، قد كانت في بادئ الأمر خوفًا، ثم أصبحتْ استعطافًا، وبعدها أصبح سكينة للروح، والجسد مثل: (الحدأة، سنونوة، البرق، جلال البحر، أشجار دمي...إلخ) كلُّ مفردة من هذه المفردات تدلُّ على قداستها الروحية، والدينية، بينما في قصيدته (التأويل) يقول:

"حقولًا تجري/ أحصنةً زرقاءَ/ تموت
وتحيا قبل الفجر/ محاريثًا عاشقةً
وزهورًا تتقافز إذ تترامى بالهالات
أسألُ عن فَدْكٍ ونخيلاتٍ هجرتني
قبل الهجرةِ
أسأل عن سقفٍ منهدمٍ وركامٍ يدخل
في توريَةٍ
تلك ثغور حافية القدمينِ عليها أسمال
ترابٍ
انكسري أيتها الشمس عليهِ
انكسري-سلة أقمارٍ
مجرى لطيور الغاق الباكي، سُحبًا
كالفضةِ مثل وميض الجسد"
(زاهر الجيزاني، ١٩٧٨: ٣٩-٥٤).

سلطَ الجيزاني الضوء على تلك القداسة؛ فيبدو وكأنه في هذه القصيدة نبضةٌ من نبضات الطبيعة التي تضمُّ في رحابها دائمًا حبَّ الطبيعة الذي يبلغ حدَّ العبادة للطبيعة التي كانت متأصلة في أعماقه، وكما هو معلوم بأنّ النفس البشرية تعشق الطبيعة التي تمنحها مباهج كثيرةً تجعلها مقدسَة في نظرها (ينظر: إ.إ. كمنز شاعر أمريكا، ١٩٧١: ٢٥-٢٦)، مثل: (الحقول، والأحصنة، والمحاريث، والزهور، وفدك، والنخل...إلخ) من الألفاظ الطبيعية التي لها قداسة في قلب الإنسان، وتبقى القداسة جياشة في قصيدته (مملكة العذاب)؛ فيقول:

"والندى غيمة الله-أفراس أيامِنا-
الطيورُ الجليلةُ
أيها الجبل المتأله -هذا طريق الندى-
فتنحى قليلًا إلى السهل
يا أيها الصقر -يا زهرة تتلألأ في عتمة
الماء- تغسل أجراسها الخضر
ماذا يقولُ النهرُ في دورةٍ قصيرةٍ لو
تعبتْ خطوتاه؟
ماذا يقولُ الوردُ لو غرقتْ تنحو مُهُ
ولوّحتْ راحتاه؟
كوكب فاض في آخر الليلِ -اهدى
حدائقنا بجعًا أرخبيلًا بحارًا"
(زاهر الجيزاني، ١٩٧٨: ١١٢-١١٤).

نجدهُ في هذه القصيدة قد جعل الإنسان يتوحد مع الطبيعة عبر قداستها، وكأنها جزء من كينونة الإنسان، وتصوره النفسي الذي يصل في بعض الأحيان إلى ما يسمى بوحدة الوجود، مما جعل توظيف الطبيعة المقدسة يتناسب مع الجو العام للقصيدة (رجاء عيد، ٢٠٠٣: ٣٢٦)، عبر ألفاظ الطبيعة، المقدسة عند الإنسان، مثل: (الندى غيمة الله، الجبل المتأله، والسهل، والصقر، النهر) التي قد أخذتْ حيزًا كبير،

وعلى هذا المنوال يأتي الشاعر (سلمان هادي الطعمة ١٩٩٣٥م) المولود في كربلاء، وهو(شاعر ومؤرخ) عَشِقَ الطبيعة، وقدسها؛ «لأن هذا الشاعر نفسه قد ارتاد المراعي الخضراء، وورد منابع المياه، وحط رحاله في واحات وارفة الظلال، وسنح له السمر في ليالٍ مقمرة...بارتياد المراعي، لأنه كثيرًا ما لجأ في أغراضه الأخرى إلى الطبيعة ليستمدّ منها صوره، وتشابيهه» (كمال اليازجي،١٩٩٥: ٨٣-٨٤)، كما في قصيدته(أمنيات)؛ فيقول:

"يا ليلة فيها تجلّى البدر يسبي الناظرين
والروضة الغناء يغمرُها عبير
الياسمين
والماء سلسال الخرير يظل يهزج في
صخوب
فلكم طويتُ العيش ارتاد الجداول
والسهوب
ولربَّ غانيةٍ تغني للخمائل والزهور"
(سلمان هادي طعمة، ١٩٨٤: ١٣).

ألفت قصيدة الرعويّة (أمنيات) مظاهر الطبيعة المقدسة التي رسمها الشاعر، واتصل بها اتصالًا مباشرًا؛ إذْ جعلت من قداستها أول،

وأضخم كتاب وجده الشاعر مكشوفًا أمام عينه، وقلبه؛ فأخذ ينهل منها، ويقلب صفحاتها، كي يريح نفسه الحائرة، وعقله القلق، وينعش قلبه العطشان لقدسيتها متفاعلًا معها، كي يحل، ويفهم طلاسمها المغلقة (علوي الهاشمي،١٩٨١: ٦١)، مثل: (البدر، والروضة الغناء، والياسمين، والماء، والسهوب، والزهور...إلخ) من الألفاظ الرعويّة التي عبرت عن قدسيتها التي استمرت في قصيدته (العصفور الجميل)؛ فيقول:

"أيها الطائر المغرد في الأفق ترنم
بأعذب الأشعارِ
بأناشيد حلوة تتناغى كنشيد الأمواج
عبر البحارِ
طالما صارت البلابل في الروض تبث
الحنين للأوكارِ
لمياه الأنهار كنت تغني أم لمرأى النخيل
والأشجارِ
أو تغني فوق الغصون وتشدو بالهوى
العذب كالشذا المعطارِ
نغمات تهز أوتار قلبي وتناغيه كالنسيم
الساري"

(سلمان هادي آل طعمة، ١٩٨٤ : ٢٣).

لم يكن ذكر الطبيعة وموجوداتها عند الشاعر سلمان هادي الطعمة مجرد وصف أو تشبيه يستعمله؛ وإنّما هي «صورة قائمة بنفسها، توحي له احاسيس جديدة تلج عقله، ونفسه وقلبه... تلهمه نظرة إلى الوجود...ونحن نعلم أنّ هناك، في الأغلب، تفاعلًا بين النفس، والطبيعة» (امية حمدان، ١٩٨١: ٧٧-٧٨)، التي لها قدسيتها الخاصة عند الشاعر، مثل: (الطائر المغرد، نشيد الأمواج، والبلابل في الروض، مياهِ الأنهار، والنخيل والأشجار وتناغيه كالنسيم)، وتبقى الطبيعة المقدسة حاضرة في قصيدته (الشتاء في عقرة)

"على سفوحك يزهو وجهك النضرُ
وصادح الحب في عينيك يزدهرُ
أعلو وأهبط والأنسام عاطرةٌ
حتى سبتني في أجوائها الصور
ثوب من الحسن هذا الثلج تلبسهُ
جبالك الشمُّ، والأمطارُ تنهمرُ
تلك النسائمُ بالآمال زاخرةٌ
غنى لها الشوقُ ذاك الملهمُ المعطارِ
وللرعاة نشيدٌ رائع عذبٌ

كم عاشق قد سباه اللحن والوترُ؟
هذي المفاتن أنّى جئتَ تبصرُها
هي السنى والندى والريحُ والمطرُ"
(سلمان هادي آل طعمة، ١٩٨٤: ٢٨).

تغزل الشاعر سلمان هادي الطعمة بالطبيعة الرعويّة بوصفها؛ «ومازالت هي الرافد الذي ينهل منه الشعراء ؛ ليعبروا عن أحاسيسهم، ومشاعرهم ... لينعكس ذلك السحر، والجمال على شعره...في نقل أحاسيسهم، وأفكارهم، وحتى عقائدهم» (ياسر رشيد حمد البياتي، ٢٠١٨: ٢٩١)، المأخوذة من قداسة تلك الطبيعة، وفي بعض الأحيان يحتاج الشاعر أنّ يبتعد عن الحياة المعاصرة، ويغور في أجواء تلك الطبيعة، كي ينسج أوابد خياله مستمتعًا بأجواء الجبال، ويحب رؤية الشتاء وتخيله كيف يغطي تلك الجبال، واستنشاق النسيم، واستقبال الربيع، وفرح الرعاة بالمراعي عبر اطلاق اناشيدهم (ينظر: عبد الواحد لؤلؤة، ١٩٨٢: ٣٠٢-٣٠٩)، مثل: (سفوحك، والأنسام العاطرة، الثلج تلبسه جبالك الشم، وللرعاة نشيدٌ، والسنى، والندى والريح...إلخ).

وتناسل هذا الاتجاه في الشعر الثمانيني في العراق؛ إذْ نلمس ذلك في تجربة الشاعر (محمد تركي النصار١٩٦١م) المولود في ذي قار، وهو من رواد قصيدة النثر الذين عبروا عن الطبيعة بروح مفعمة بالحياة، مما جعلها ذات قداسة تمس تلك النفوس، وتشذو بأنغامها معطرة لأجواء القصيدة الرعويّة ذات النفحة الرومانسية؛ «فالطبيعة عند الشاعر الرومانتيكي معبد يأوي إليه ليستجم عندما تقسوا الحياة» (محمد مندور، ١٩٨٨: ١٠٣)، عليه؛ فيتأمل قداستها، ويصفها في قصيدته(أشجار)؛ فيقول:

"تمدح بعضها هذه الأشجار
وتخفي سعادتها عن سكان الريف
وتأكلُ، وتشربُ، وترقصُ بأمانٍ،
تُحسدُ عليهِ،
وسكان هذا الريف ينظرون بارتياب
لهذه الأشجار
وسُرِقت الأشجار واحدةً واحدةً من
هذا الريف
فما الذي يمكن أنّ نفعل لنجدة هؤلاء

السكان الريفيين!!"

(محمد تركي النصار، ١٩٩٢: ٥).

ركز النصار على نقطة مهمة في هذه الطبيعة منذ العنوان، هي أنَّ (الأشجار) تعدُّ من مقدسات الطبيعة، بوصف «الطبيعة ذات حياة، وروح يمكن مخاطبتها، ومناجاتها، ومبادلتها الأفكار، والعواطف...وفي هذا الحديث تذكر لنا الشجرة شيئًا عن حياتها، ونشأتها، وكيف نمت حتى اصبحت كثيرة الأغصان، وارفة الظلال تأوي إليها الطيور، ويقصد ظلالها طلاب الراحة» (أنيس المقدسي، ١٩٧٧: ٣٥٣-٣٥٦)، مثل: (تمدح بعضها هذه الأشجار، وتخفي سعادتها عن سكان الريف، وتأكل وتشرب، وترقص بأمان، وسرقت الأشجار... إلخ)؛ فنرى من هذه الألفاظ الخاصة بالطبيعة لها أهميتها التي توحي بنوعٍ من القداسة التي تستمر في قصيدته (السائر من الأيام)؛ فيقول:

"أأمدحُ شهوةَ البرقِ أم أفلُّ أزرارَ هذا الغيمِ؟

وأنثاه التي تغزلُ طبلًا أسفلَ الشرفاتَ

يُراقبُ الأعلى؟!

وردةٌ تفر من شهوةِ البرقِ، لترعى دارةَ العدمِ،

انتهبَ الدوارُ ذئاب السراجِ، والقططَ التي تتمطى في شرفةِ الغيمِ

وماذا سترعى، والأرض جحر عميقّ؟

وماءً يحرقُ المركب والجرذان!"

(محمدتركي النصار،١٩٩٢: ٦٠-٦٤).

خلقَ النصار نصًّا رعويًّا يتماشى مع قداسة تلك الطبيعة، كي يكون قادرًا على بث نوع من الأمل، والإشراق، والبريق الذي يتماشى مع براءتها بوساطة الدمج بين وظائف الحواس عند الإنسان، والطبيعة من أجل خلق نصٍ جماليٍّ عندما يجعلها الشاعر بستانًا منسقًا، وقمريًا (ينظر: عبده بدوي، ١٩٧٥: ٥١-٥٣)، أو العكس من ذلك، مثل: (شهوة البرق، أفل ازرار هذا الغيم، والوردة تفر من شهوة البرق، وانتهب الدوارُ، ذئاب السراج، والقطط التي تتمطى، والأرض...إلخ)؛ فكلّ هذه الألفاظ دالة على قدسيتها لدى الشاعر الذي بقى متأملًا في تلك الطبيعة التي عبر عنها في قصيدته(فراشات)؛ فيقول:

"معنى الغيمةِ

وباركنا موتها تحت المياه، لكنها بين حينٍ وآخر
تكسرُ الصقيعَ وتفرُّ، فيرجمها ترابُ النجوم الذي نسميه الليل
يا لهذه الأزهار، مكرت فصنعت كل هذه السهول
واطلقت وابل المياه والكلمات السود
لذلك ظلّ هذا النهرُ"

(محمد تركي النصار، ١٩٩٢: ٦٥-٧٠).

سخر النصار تلك الطبيعة في نصّهِ الشعري من أجل الإشارة إلى قدسيتها التي بيّنتْ «إنّ الطبيعة في الأدب الحديث ((حيويّة)) عاقلة يحسّ بضربات فؤادها، ويسمع رخيم إنشادها، ويلذّ له التحدث إلى انهارها وغاباتها، وجبالها، ووهادها» (انيس المقدسي، ١٩٧٧: ٣٥٣)، التي تبين جمالها النابع من سرّ قدسيتها لدى الإنسان عامّة، والشعراء على وجه الخصوص، مثل: (الغيمة، وباركنا موتها تحت المياه، تكسر الصقيع، ترابُ النجوم، والأزهار، والسهول، وابل المياه، والنهر...إلخ) كلّ هذه ألفاظ الطبيعة كانت مصدر إلهام ارتبط بالشعر والشعراء؛ إذْ ينظرون إليها بقداسة تمس النفس بنوع من السكينة، والهدوء، نظرًا لما تشكلهُ تلك الطبيعة، من جمال الرؤيا التي حفزت الخيال الندي عند الشعراء، وعلى ذلك ما مضى عليه الشاعر(منذر عبد الحر١٩٦١م) المولود في محافظة البصرة، إذْ جرتْ الطبيعة في شعرهِ كجريان شط العرب، وسمى شعره فارتقى به إلى نخيلها؛ فقدسها بوساطة الجدة الحقيقية في فهم معنى تلك الطبيعة، والهيام بها من أجل الفرار من ذلك المجتمع؛ فحلق بشعره الذي يعلو على الارتباط بمقدسات الطبيعة من طريق الخيال الذي يشق الحجب (ينظر: مصطفى ناصف، ١٩٨١: ٢٣٢)، كي يرتبط مع موجودات تلك الطبيعة المقدسة التي يصفها بقصيدته(صدأ) قائلًا:

"مورقا بالحقول التي نثرت الطيور
وأشاحت بأعشاشها عن الورد
تاركا ينابيعها على شاطئ الوهم
لك من الجموع نبع يقاطع المرافئ بالترتيل
ويضئ جفولها حتى لا يشبه القطيع
يغادر دوّي المرعى
تحمل القرية على كتفيك، وجموحا

على صمتك تنذر النذور- لحظات الحرث"
(منذر عبد الحر، ٢٠٢٢: ٢٨-٣٧).

كشف الشاعر منذر عبد الحر في قصيدته الرعويّة قدسية تلك الطبيعة التي تعتريه أمامها نشوة ممزوجة بشعور قدسي عميق يضفي على مناظرها الطبيعية نوعًا من مظاهر إلّهية، فتحول حبه إلى نوع من العبادة يرتل فيها عظمة الخالق الذي خلق تلك الطبيعة الجميلة(ينظر: محمد غنيمي هلال، ١٩٧٣: ١٧٨-١٧٩)، مثل: (الحقول، والطيور، والورود، والنبع يقاطع المرافئ بالترتيل، والقطيع، والمرعى، والقرية، وتنذر النذور لحظات الحرث...إلخ)، بينما كانت الرؤية شديدة الاختلاف للطبيعة في قصيدته(مودّعون)؛ فيقول:

"السبات الذي نَمَتْ تحته الأشجار
وتعلّق المنسيون بغيومه
وتيبست الأنهار على شفتيه
ينزل بعصاه إلى الحقول، ويجمّل
التركات بالقرابين
تنأى رياحي، وتمضي في الدجى سفني
فأستغيثُ ببحرٍ فيه أنهمرُ"
(منذر عبد الحر، ٢٠٢٢: ١٠٢-١٠٨).

رسم الشاعر منذر عبد الحر الطبيعة ذات القداسة بحالة من الركود، والسكون في قصيدته الرعويّة، وهذا هو الوجه الأخر للطبيعة التي تظهر الجانب المضاد للأمل الجميل الذي يزخر به الروض، بكلِّ موجوداته عبر الطيف المشرق للروح الإنسانية النابعة من نهر الشعر المتدفق بين الحقول، والزهور، والأنهار، والأشجار، فكلها تعبر عن حالة تأزم نفسي يمرُّ بها الشاعر؛ فالروض ليس مجرد أزهار (ينظر: ماهر حسن فهمي، ١٩٧٩: ٦٦-٦٧)؛ بل هو مشارك فعال في حياة الشاعر، مثل: (السبات التي نَمَت تحته الأشجار، والغيوم، وتيبست الأنهار، ينزل بعصاه إلى الحقول، والقرابين، وتنأى رياحي، فأستغيث ببحرٍ... إلخ) هذه الألفاظ التي تمسُّ الطبيعة بقدسيتها لدى الإنسان، بينما الشاعر يبقى متشبثًا بقدسيتها؛ فيقول: في قصيدته (ألفة)

"وهو يرسم للقطيع مرعى الرغبات
كلما انكفأت شجرة من حقل قلبي
يأخذها الخريف بالأحضان

وأخرجني إلى شتاته أجمع ما يتساقط
من النجوم
وأحفر للقمر مساقط ضوء
وأجمع المساءات من برك الشمس"
(منذر عبدالحر، ٢٠٢٢: ١٣١-١٣٦).

نرى في هذه القصيدة الرعويّة عاطفةً جياشةً، تنطلق من رؤى الشاعر منذر عبد الحر تجاه تقديس تلك الطبيعة، وموجوداتها التي يختلف معظم الشعراء «في موقفهم من الطبيعة حبًّا، وعبادة، وبغضا، واستخفافًا، فأنهم اتفقوا جميعًا على تقديس عاطفة الحبّ» (محمد غنيمي هلال، ١٩٧٣: ١٨١)؛ لتلك الطبيعة المقدسة، مثل: (يرسم للقطيع مرعى، وكلما انكفأت شجرة من حقل قلبي، والخريف، والنجوم، والقمر، وبرك الشمس) من الألفاظ التي عمقتْ صلة الإنسان، ولا سيّما الشعراء مع تلك الطبيعة المقدسة، بكلِّ موجوداتها؛ إذْ بقتْ تزدهر في مخيلة، وعلى الرغم من حداثة النص الشعري؛ الذي انفتح على مضامين جديدة؛ لكن تبقى الطبيعةُ وأجواؤها جاذبة للشعراء الحديثين، وإن كتبوا في شكل جديد على الذائقة الشعرية، كما فعل الشاعر(عمار المسعودي١٩٦٦م) المولود في محافظة كربلاء عَشّقَ الطبيعة حتى القداسة؛ فكتب القصيدة الرعويّة بروح فطرية جمعته مع الطبيعة، مما جعل تلك الطبيعة ذات قيمة عالية ترتقي إلى أعلى درجات السمو؛ لأنها متأتية من علاقة النفس بالطبيعة؛ إذْ جسدها في قصائدِهِ الرعويّة، ومنها: قصيدته(حقول)؛ فيقول:

"اللعبة أنّ تأخذَ الشمسَ
بكفَّك.. بينا الرعاة يؤوبون عشاء
سأحصي النساء بالنجوم، والنجوم
بالموتى
والموتى بالحقول
فلماذا حين تتشابه الحقول يتشابه
الموتى؟
أيتها الحقول، لندخل من ظل زيتونة"
(عمار المسعودي، ٢٠١١: ٤٦-٤٩).

عزز المسعودي نظرتَهُ للطبيعة بوصفها «الطريق إلى تحقيق فردوسه الريفي المنشود الذي تتحقق فيه وحدة الإنسان مع الطبيعة» (محمد بودويك، ٢٠٠٦: ٧١)؛ فجاء شعره ممتلئًا بخواطر نفسية، وتأملات فلسفية، بوصفه للطبيعة؛ لأنه ميال إلى المعنويات،

والروحانيات في تقديس الطبيعة عبر وصفها المادي، أو الحسي، هي عنده كائنات حية يكلمها، ويحاورها (ينظر: شعبان عبد الحكيم محمد، ٢٠١٢: ٤٣)، مثل: (تأخذ الشمس بكفك، والرعاة يؤوبون، سأحصي النساء بالنجوم، والموتى بالحقول، وأيتها الحقول لندخل في ظل زيتونة...إلخ)، ولا يزال المسعودي متعلقًا بالطبيعة؛ فيقول: في قصيدته (ألا يليق لهذا الصيف اسم آخر)

"فمن أشغلك أيتها النخلة؟
من أن تقولي للمغني أن رطبي أشهى
من كل قمصانك
وعلى تنور قميصك يشتعل القلب
مرارا
كنت متوردا على كفك المسحوقة
بالقمر
كانت الساقية تفيض قليلا ورذاذ
من رطبك دافئا"

(عمار المسعودي، ٢٠١١: ٥٠-٥٤).

عَزِمَ المسعودي في قصيدته الرعويّة على مزج روحه الإنسانية مع تلك الطبيعة، وتقديسها عبر بث روح الألفة بينهما «الذي ظل وفيًّا لجذوره الرعويّة الزراعية في سلوكه، وشعره، وفلسفته في الحياة...مبقية على النسغ الحار الذي يسري في شجراتها، ناسجة من خيوط الذهب، وأوراق الربيع» (محمد بودويك، ٢٠٠٦: ٧١)، مثل: (فمن أشغلك أيتها النخلة، وأنّ رطبي أشهى، والتنور، والقمر، والساقية)، من أوصاف الطبيعة التي عبر عنها، وبقي مستلقيًّا تحت ظلالها، كما في قصيدته (ساعة يلمع الماس):

"من ينحت بصدق نخلةٍ: امرأة
تمسك سيف الفاتح
مَنْ يرى القطن ويحنُّ إلى بلاد النوبة؟
مَنْ يضعُ على الخرائط صحراء لا
تريم؟
الرازقي منه ذو رائحة ومنه ذو شكل
الذي يزهر كثيرا لا يثمر
الرمان كذلك في رأسه أصابعه
أخجل من المرج حين تمر السحابة"

(عمار المسعودي، ٢٠١١: ص٦١-٦٦).

سعى المسعودي إلى إتباع الطبيعة، وتقديسها، عبر ما سار عليه الأقدمون الذين استكشفوها من طريق الفطرة السليمة؛ فوصفوا تلك الطبيعة، وموجوداتها، والغاية من ذلك إيمانًا بما

يحمله الإنسان من القيم التي تجعل من الطبيعة هي أساسها (ينظر: روبرت. بي إيلس وآخرون، ٢٠١٨: ٧٤)، مثل: (من ينحت بصدقٍ نخلة، والقطن، والصحراء، والرازقي، والرمان، وأخجل من المرج حين تمر السحابة... إلخ)؛ فكانت تروم في قلب المسعودي قبل عقله قداسة تلك الطبيعة، التي شاركه فيها، وهو ما يمكن قراءته في تجربة شعرية حداثوية أخرى، وهي تجربة الشاعر (علي عبد الأمير عجام١٩٦٧م) المولود في محافظة الحلة قضاء المسيب تعلق في الطبيعة؛ فقدسها بشعره؛ لأنها كانت ملهمه الأول الذي يلجأ إليه برسم «رسم الربيع، وطراوته، وإشراقه، وقيظ الصيف، وشحوب الخريف، وعواصف الشتاء الثلجية، والبرد القارص، وشاعرية الليالي القمراء، وروعة المناظر الجبلية وجلالها، وسحر النجوم، ودفء الشمس، وعبوس الغيوم، وعويل الريح» (حياة شرارة، ١٩٧١: ١٠٥)، الذي يصورها العجام في مجموعة من قصائده، ومنها: قصيدته (تدريب بصري لعين كسول)؛ فيقول:

"سأعتذرُ للعشبِ عن هذا العطشِ
المفاجئ
واهبط إلى غفوةٍ في المشاتلِ
في شرفتي التي توهجت بالأوركيد
أرعى احتفالي بفخار السنادين يداي
التي بكت بين الأغصان الميتة
غصن النارنج، يقدم النهار لقلبي في
الصباح تنشأ زهرة قرنفل في لفافة تبغ
اقطف شيئًا من شبوي أبقاه الليل
تعبّأ ذكرى الشمس في سلالها المطرزة
تؤنس البرد بثوبها الصوفي"
(علي عبدالأمير عجام،١٩٩٣: ٢٩-٣٦).

كرس العجامُ جهدهُ النفسي في قصيدتهِ الرعويّة من أجل إضافة بعدٍ قدسيٍّ «فهو منتمٍ للقصيدة بوصفها حضورًا روحيًّا خالصًا، ونبضًا قلبيًّا ذا معطيات وجدانية عاطفية عالية البوح» (رحمن غركان، ٢٠٢٣: ١٨٩)، ساعدته في رسم تلك الألفاظ النابعة من الطبيعة، «وهذه النشوة بين أحضان الطبيعة هي طابع الرومانتيكيين جميعًا، وذلك أن مبادئهم حب الخلوة، واعتزالِ الناس» (محمد غنيمي هلال، ١٩٧٣: ١٧٠)، من أجل التمتع بتلك الطبيعة الغناء، مثل: (سأعتذر

للعشب، غفوة في المشاتل، والأوركيد، وبفخار السنادين، وغصن النارنج، وزهرة قرنفل، والشبوي...إلخ)؛ إذْ تستمر رحلة العجام مع قداسة الطبيعة في قصيدته (خوذة لهذا الرحيل)

"النهارُ مسجّى في نعش من البنفسج الهادئ
الحطام، يلسع في الفجر برعما حاول الاختباء
دون زهرة تتأرجح على الضجيج
سأختبر بخشوع، وانحناء مقدس
هذي التراتيل، والشموع
الفتى حر كضباب منهك وحيد
غادرني في الأفق الشاحب، والغرنوق العالق بقلبي أسان
سأظل ارعى الهدوء في عشبة، واحرق بصمت قبة الظلام"

(علي عبدالأمير عجام، ١٩٩٣: ٣٧-٣٨).

كثفَ العجامُ جهدهُ الفكري من أجل إضفاء سحر خاص ذي قدسية خاصة للطبيعة، ويبدو أنّ ضوء النهار الذي يمنح الأمل الذي جسده الشاعر بالإنسان؛ فأصبح ميتًا كما يدرك الإنسان الموت من طريق مشاركة الطبيعة في مشاعره (فرح غانم صالح البيرماني، ٢٠١٥: ٢٤٢)، مما جعل الطبيعة تمتزج مع نفس الشاعر، مثل: (النهار مسجى في نعش، والبنفسج، ويلسع في الفجر برعما، وزهرة تتأرجح، وانحناء مقدس هذي التراتيل وكضباب منهك، والغرنوق العالق بقلبي، وسأظل ارعى الهدوء في عشبة، إلى غير من الألفاظ التي توحي بتقديس تلك الطبيعة التي لا زالت تنبض بالحياة كما في قصيدته (اكتافك عريضة خذ البحر إلى النسيم)؛ فيقول:

"وحيد قرن تبوّأ دفة قاربي
ورقّدني في موج بَدّدَ اجنحته في الرمل
اجمع فراشات غفت على شفاه المياسم
على انشودة زودت المياسم بما تشتهي
من طلع وفراشات
قالوا لي حملة آنية الزهر ومشيّدو الحظائر
قلت: (باسم الحب) سنمحو التاريخ الشقي
موجة تشتت هناك عند مجمع جباية الصخور"

(علي عبدالأمير عجام، ١٩٩٣: ٤٧-٥٠).

جعل العجام في قصيدته الرعويّة الطبيعة ذات رؤية مختلفة توحي

بنوع من المشاهد الحقيقية التي مزجت مع الخيال المفعم بجمال الطبيعة، مثل: (وحيد قرن تبوّأ دفة قاربي، ورقدني في موج، واجمع فراشات، والمياسم بما تشتهي من طلعٍ وفراشات، وآنية الزهر، ومشيدو الحظائر، وموجة تشتت...إلخ) من الألفاظ الدالة على قدسيتها لدى الإنسان؛ إذْ «إنّ عالم الطبيعة عالم كبير، يتألف من مكونات لا حد لها، وإنّ أنواعها، وأجناسها متباينة فيما بينها تباينا مذهلا، فألوان الأزهار، وأصنافها، وأصوات الطيور، وفصائلها، وأجناس الحيوان، وأنواع الفاكهة، ومظاهر السماء، وعجائب الكون، كلها تؤلف عالم الطبيعة الساحر»(محمدحسن علي،١٩٨٨: ٢٧)، وهنالك قول جميل، ومعبر لتولسْتُوي يقول فيه: ((أحبُّ الطبيعة عندما تحيطني من كل الجهات، وتترامى بعيدًا نحو الأفق المترامي، وعندما تحتويني، ويغمرني هواء حار يتصاعد نحو الاعالي اللامتناهية، وعندما ينمو باستمرار ذلك العشب الريان الذي دسته في أثناء جلوسي عليه، وهو يخلق الخضرة في المروج الرحبة. أحبّها عندما تلتقي تلك الأوراق التي تلوحها الرياح، ظلالها على وجهي كاسية الغابة لونا أزرقًا. أحبّها حينما يكون الهواء الذي أتنفسه تلك السماء اللامتناهية الغامضة الزرقة، وعندما تضج الحشرات من حولي، وتسير الأبقار وتصدح العصافير)) (حياة شرارة، ١٩٧١: ١٠٥)؛ إذْ إنّ هذا التوليف الذي يرتبط في ضمير الشاعر بالطبيعة هو سر السعادة التي تحققها الطبيعة له، وكأن الجمال الحقيقي يكمن وراء شكل ومضمون الطبيعة التي تعطي للحياة جمالها المنثور بصفة الطبيعة هي أساس سعادة الإنسان، ومن ثم فنائه (ينظر:مجلة آداب المستنصرية، ع/ ٩، ١٩٨٤: ٢٤٣-٢٤٤)،«وإن عالم الطبيعة نموذج للحياة المتفجرة المنسابة دون توقف، أو انقطاع...تغدو الطبيعة ملاذًا للإنسان في بحثه عن التوافق، والخير، وفي مثابرته للتخلص من الشوائب الخلقية، والاوجاع النفسية، وفي سعيه لإصلاح ذاته، وهي توحي للإنسان بتجسيدها للنشاط، والقوة، والتناسق، أفكارًا، ومثلًا عالية، وتخلع عليه روحا من الأمل، والسرور،

والتفاؤل، والثقة، وتشفيه من اليأس، والتشاؤم، والاندحار» (حياة شرارة، ١٩٧١: ١٠٤)، مما جعل الطبيعة عند الشعراء هي ملاذ، وصديق مخلص يلجؤون إليها كلما اشتدّت عليهم وطأة الهموم، والآلام أو العكس من ذلك؛ فهم في أحضانها يستريحون، ويتمتعون بمناظرها الجميلة التي تسعدهم، وتزيل متاعبهم، فهي مصدر الراحة، والجمال على الرغم من اختلاف موجوداتها، وعناصرها، وكلّ شاعر منهم فهمها على طريقته الخاصة في وصف ألوانها الزاهية، بجبالها، وأوديتها، وسهولها، وفصولها، وينابيعها... إلخ (ينظر: أنطونيوس بطرس، ٢٠١٣: ٢٩٥-٢٩٨)، من الألفاظ الدالة على تقديم تلك الطبيعة التي «احتضنت، منذ البدء، الفعل الإنساني: تثيره، وتنميه، وتحاوره، وبسحرها وجلالها الغامض الطري كانت مصدرًا لدهشة الإنسان، ومبعثًا لحنينه، واحساسه بالجمال. كانت، بعبارة أخرى، رمزًا لتشوقه إلى المطلق، والسامي والبعيد» (علي جعفر العلاق،١٩٩٠: ٦٢-٦٣)، وغالبًا ما تأخذ الطبيعة منحى عقائديًا في مرحلة توظيفها؛ إذْ نجد ثمة علاقة واضحة بين الشاعر، وتلك الطبيعة الرعويّة التي تمثل محل تقديس تتأتى من نفس الشاعر في كتابته لقصائد الطبيعة(ينظر: عصام جبار، ٢٠٢٣: ١٧).

الخاتمة:

خلاصةُ القولِ انَّ الشاعر حينَ يعبرُ عن أفراحهِ، وسعادته، وحبه؛ فإنّه يذكر الربيع، والزهور، والطيور، وجميع المناظر الخلابة، بينما في احزانه، وآلامه، يذكر الليل، والشتاء، والخريف، والجفاف...إلخ، ولولا الطبيعة، وقداستها لما كانت هنالك قصيدة رعويّة تمثل تلك الطبيعة الغناء؛ لأنها المكون الرئيس في تلك القصيدة، والملهم الأول للشعراء؛ فالطبيعة لها قداستها الخاصة في نفوسهم، وانفعالاهم، وعواطفهم المفعمة بالبساطة، وكلّ ذلك من مكونات القصيدة الرعويّة؛ فعندما نحصي تلك المكونات يكون الشاعر من ضمن موجودات تلك الطبيعة المقدسة، وجزءًا منها، وينتمي إليها، ويقدسها بكلِّ ما تحمله من سرِّ القداسة من معنى.

المصادر والمراجع:

١- الاتجاهات الأدبيّة في العالم العربي الحديث، انيس المقدسي، دار العِلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٧٧م.

٢- الأدب العالمي المعاصر، إ.إ. كمنجز شاعر أمريكا، تأليف د. زاخر غبريال، المطبعة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، د. ط، ١٩٧١م.

٣- الأدب تعريفه – أنواعه – مذاهبه، د.أنطوانيوس بطرس، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، ط١، ٢٠١٣م.

٤- استعارات الطبيعة في الشعر العربي الأندلسي (ابن حزم الأندلسي ٤٥٦هـ انموذجا)، د.ياسر رشيد حمد البياتي، جامعة تكريت، كلية التربية، مجلة سرّ من رأى، كلية التربية، جامعة سامراء، م١٤، ع٥٤، السنة الثالثة عشر، ٢٠١٨م.

٥- الأطراس الأسطورية في الشعر العربي الحديث، ناجح المعموري، دار الشؤون الثقافية العامة، سلسلة نقد، العراق، بغداد، ط١، ٢٠١٩م.

٦- إنتاجية الشعر ممكنات القصيدة وإفاضات التأويل، د.رحمن غركان، دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع، العراق، ديوانية، ط١، ٢٠٢٣م.

٧- تجليات الطبيعة المتحرّكة في الشعر الإسلامي المعاصر، دراسة تحليليّة، م.حيدر هادي سلمان، كلية التربية الأساسية، جامعة الكوفة، مجلة كلية التربية، جامعة واسط، المؤتمر العلمي١١، م٣، ع٣، ٢٠١٩م.

٨- تطوّر الشعر العربي الحديث بمنطقة الخليج، د. ماهر حسن فهمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، د. ط، ١٩٧٩م.

٩- تعالي نذهب إلى البريّة، زاهر الجيزاني، دار الحرية للطباعة والنشر، وزارة الثقافة والفنون، كتابات جديدة (٣٣)، بغداد، ١٩٧٨م.

١٠- تولسْتُويْ فنّانًا، د.حياة شرارة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧١م.

١١- حركة الشعر العربي في المهجر ملامحها وأشهر الأعلام، د.شعبان عبد الحكيم محمد، دار العلم والإيمان للنشر، والتوزيع، د. ط، ٢٠١٢م.

١٢- حول الأدب العربي، د.كمال اليازجي، دار الجبل، بيروت، ط١،

١٤١٦هـ-١٩٥٥م.
١٣- الرمزية والرومانتيكية في الشعر اللبناني، امية حمدان، منشورات وزارة الثقافة والاعلام- الجمهورية العراقية، سلسلة دراسات(٢٦٧)، ١٩٨١م.
١٤- الرومانتيكية، د.محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، دار الثقافة، د. ط، ١٩٧٣م.
١٥- رياض الذكريات، شعر، سلمان هادي الطعمة، مطبعة العاني، بغداد، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
١٦- ساعة يلمع الماس، شعر، عمّار المسعودي، رند للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١١م.
١٧- السائر من الأيام، كتاب أسفار(١)، محمد تركي النصار،دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، د.ط،١٩٩٢م.
١٨- الشعر الإنكليزي في أربعة قرون منذ بداية القرن السابع عشر وإلى نهاية القرن العشرين رؤية نقدية، روبرت بي. إيلس وآخرون، ترجمة: د. عبد الواحد محمد مسلط، دار ومكتبة عدنان، ط١، ٢٠١٨.
١٩- الشعر النسوي في العراق ١٩٦٠-٢٠٠٠م دراسة موضوعية وفنية، د.فرح غانم صالح البيرماني، دار المرتضى، العراق، بغداد، ط٢، ٢٠١٥م.
٢٠- شعر عز الدين المناصرة بنياته إبدالاته وبعده الرعويّ، د. محمد بودويك، دراسة نقدية، دار مجدلاوي للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
٢١- الصورة الأدبية، د.مصطفى ناصف، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط٢، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
٢٢- فن الوصف وتطوره في الشعر العراقي الحديث (١٨٠٠-١٩٢٥م)، د. محمد حسن علي مجيد، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد، د. ط، ١٩٨٨م.
٢٣- في الأدب والنقد، د. محمد مندور، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د. ط، ١٩٨٨م.
٢٤- في الشعر والشعراء، د. عبده بدوي، ج١، الناشر مكتبة الشباب، القاهرة، د. ط، ١٩٧٥م.
٢٥- في حداثة النص الشعري، د. علي جعفر العلاق، دار الشؤون الثقافية

العامة، بغداد،ط١، ١٩٩٠م.
٢٦- قرابين المجموعة الكاملة للشاعر، منذر عبد الحر، منشورات اتحاد الأدباء، الشعر العربي، العراق، المكتبة الوطنية، ط١، ٢٠٢٢م.
٢٧- لغة الشعر قراءة في الشعر العربي الحديث، د.رجاء عيد، الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية، د. ط، ٢٠٠٣م.
٢٨- ما قالته النخلة للبحر الشعر المعاصر في البحرين، علوي الهاشمي، دار الحرية للطباعة، بغداد، د. ط، ١٤٠٠هـ-١٩٨١م.
٢٩- مجلة آداب المستنصرية، تصدرها كلية الآداب بالجامعة المستنصرية، العدد التاسع، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
٣٠- الموجة الجديدة نماذج من الشعر العراقي الحديث، ١٩٧٥-١٩٨٦، اعداد زاهر الجيزاني وسلام كاظم، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والأعلام، بغداد، د. ط، ١٩٨٦م.
٣١- موسوعة المصطلح النقدي يترجمها ع الأنكليزية، م١، د. عبد الواحد لؤلؤة، دار الرشيد للنشر، منشورات الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، سلسلة الكتب المترجمة(١٢٠)، ١٩٨٢م.
٣٢- النّزوع الصُّوفيّ في الشعر التسعيني العراقي مقاربة نقدية لنصوص مختارة، م. د. عصام جبار منصور المالكي، مجلة واسط للعلوم الإنسانية، جامعة واسط، م١٩، ع٥٤، ٢٠٢٣م.
٣٣- الوعي والفن دراسات في تاريخ الصُورة الفنية، غيورغي غاتشف، ترجمة د. نوفل نيّوف، مراجعة د. سعد مصلوح، عالم المعرفة، د. ط، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
٣٤- يدان تشيران لفكرة الألم، علي عبد الأمير عجام، مطبعة الأديب البغدادية، الشعر العربي، العراق، سلسلة ضد الحصار الثقافي -٤، ط١، ١٩٩٣م.